محور بحوث العلوم الإنسانية والاجتماعية

القيافة ودورها في النظام القصوري الواحاتي بمنطقة توات في الجنوب الغربي الجزائري

بقلم

د. مبارك جعفري (*)

ملخص

عرفت منطقة توات بالجنوب الغربي الجزائري ومنذ قيامها بنظام اجتماعي واقتصادي قائم على أساس القصر. والواحة، وبرز في هذا النظام مجموعة من الحرف والمهن والتي كان لها دور مهم في بقائه واستمراره لغاية اليوم، وتعد القيافة واحدة من الحرف التي اشتهر بها التواتيون، وعرفت بينهم بـ (قص الجرة)، وبرز في توات الكثير ممن امتهن هذا الحرفة، بل عرفت بعض العائلات بها، وقد ساهم قصاص الجرة مساهمة اقتصادية واجتماعية كبيرة في المجتمع التواتي القصوري الواحاتي، وهذا ما سنحاول تناوله في هذا المقال، من خلال ما سجلته الذاكرة الجماعية والروايات الشفوية، بغية المساهمة في تدوين التاريخ المحلي للمنطقة والمحافظة عليه.

الكلمات المفتاحية: القيافة، القائف، توات، القصور، الواحات، الحرف والمهن، الحياة الاجتماعية والاقتصادية.

المقدمـــة

تعد منطقة توات[1] بالجنوب الغربي الجزائري من المناطق التي عرفت استقرارا مبكرا للإنسان، نتيجة لوجود الماء، ولموقعها الاستراتيجي الذي يتوسط الصحراء، وكونها منطقة عبور للقوافل التجارية. وفي توات حفر السكان الفقارات، وشيدوا القصور، ومارسوا الزراعة، فتشكل مع الوقت نظام اجتماعي واقتصادي يقوم على أساس القصر والواحة، وفي هذا النظام نمت الكثير من الحرف والمهن، ومنها القيافة التي اشتهر بها التواتيون، وعرفت بينهم بـ (قص الجرة)، وبرز في توات الكثير ممن امتهن هذا الحرفة، بل عرفت بعض العائلات بها، وقد ساهم القائف مساهمة كبيرة في

(*)أستاذ محاضر "أ" بقسم العلوم الإنسانية ـ كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية والعلوم الإسلامية ـ جامعة أدرار
Mebarek76@gmail.com
تاريخ الإرسال: 2018/06/13 تاريخ القبول: 2018/06/24

المجتمع وفي مختلف الأصعدة.

وتكمن أهمية الموضوع وأهدافه في كونه يسلط الضوء على جانب من الجوانب الحضارية المهمة في تاريخ المنطقة، والتي مكنت الإنسان من الاستمرار والعيش بأمان في صحراء قاحلة، كما أن أغلب الأبحاث والدراسات حول المنطقة تناولت العلوم التقليدية المعروفة عند التواتيين، وأهملت جوانب أخرى مهمة كان لها دور كبير في ازدهارها وتطورها، لأنها ترتبط بحياة الإنسان العادي ونشاطه اليومي، كما تهدف هذه الدراسة إلى إبراز أهمية الرواية الشفوية في كتابة التاريخ، خاصة التاريخ الاجتماعي والاقتصادي.

وتتمثل إشكالية الموضوع في إبراز أهمية القيافة ودورها في النظام القصوري الوحاتي في منطقة توات، وتندرج تحتها إشكالات فرعية هي: ما هي القيافة؟ وما المقصود بالنظام القصوري الواحاتي؟ وما العوامل المساعدة على انتشار هذه الحرفة في توات؟ ومن هم أشهر من مارسوا هذه الحرفة؟ وما هي المميزات التي امتاز بها القائف ؟ وما هو الدور الاقتصادي والاجتماعي الذي قام به؟

واستعنا في هذا البحث بالمنهج الوصفي، من خلال وصف هذه الحرفة وجمع المعلومات المرتبطة بها، والمنهج التاريخي كون الفترة المدروسة هي فترة ماضية، رغم أن الدراسات الاجتماعية والاقتصادية في جوانب كثيرة لها امتدادات أنية مستمرة لغاية اليوم.

وهناك الكثير من الدراسات والأبحاث التي تناولت تاريخ وتراث منطقة توات والتي تتقاطع مع هذا الموضوع في بعض جزئياته، منها: دراسة **"الفقارة بمنطقة توات وأثرها في حياة المجتمع"** لموساوي عربية سليمة، والتي تناولت الفقارة وما يرتبط بها من حرف ومهن، كالكيال والقوام، و**"الوضع الاقتصادي في توات من خلال مخطوط الغنية (في القرنين 11و12ه)"** لهرباش زاجية، **و"جوانب من النظام الاجتماعي لتوات من خلال مخطوط غنية المقتصة السائل فيما وقع في توات من المسائل"** لبن عبد المؤمن بهية، **و"الفنون الشعبية وأثرها في التنمية البشرية بمنطقة توات"** لبومدين علي، وكل هذه المواضع أتت على الحياة الاجتماعية والاقتصادية في توات بما فيها الحرف والمهن، ولكن حسب علمي وحسب ما اطلعت عليه ليست هناك دراسة متخصصة حول القيافة في المنطقة.

ويكون تصوري لهذا الموضوع وفق الخطة الآتية:

. مقدمة

.تعريف القيافة.
.النظام القصوري الواحاتي في توات.
.العوامل المساعدة على انتشار القيافة في توات.
.نماذج من ممارسي هذه الحرفة في توات.
.الأهمية الاقتصادية والاجتماعية للقيافة
.خاتمة.

ـ تعريف القيافة:

هي التنبؤ والإخبار عن شيء بتتبع الأثر والشبه، وتدخل في ذلك قيافة آثار الأقدام والأخفاف والحوافر[2]. وقال الفراء: القفو مأخوذ من القِيافة، وهو تتبع الأثر، يقال: قد قاف القائف يَقوفُ فهو قائف قيافة، تقدَّمت الفاء وأُخِّرت الواو[3]. والقائفي نسبة إلى القيافة، ويقال لواحد منهم (القائف) والنسبة إليه (القائفى)[4]. وفي المعجم الوسيط (الْقَائِف) من يحسن معرفَة الْأَثر وتتبعه[5]. ولقيافة: بكسر القاف التعرف على نسب المولود بالنظر إلى أعضائه وأعضاء والده[6]. وعرفها البعض أنها تتبع الأثر على الرمال، ومعرفة بصمات الأقدام، وتمييزها عن بعضها، ولو تزاحمت وتراكمت[7]. وأما الفراسة، فتكون بالاستدلال بهيأة الإنسان وأشكاله وأقواله على صفاته وطبائعه. وذهب بعض المستشرقين إلى أنها أخذت من الآرامية[8]. و"العيافة" هي التنبؤ بملاحظة حركات الطيور والحيوانات ودراسة أصواتها[9].

والقيافة على ضربين قيافة البشر، وقيافة الأثر. فأما قيافة البشر فالاستدلال بصفات أعضاء الإنسان وهيئته، وأما قيافة الأثر فالاستدلال بالأقدام، والحوافر، والخفاف، واختص بها قوم من العرب، فكان إذا دخل عليهم سارق تتبعوا آثار أقدامه، أو فر منهم شخص، ومن عجيب أمرهم حسب ما تذكر المصادر أنهم كانوا يعرفون قدم المرأة من الرجل، والشاب من الكهل من الشيخ، والبكر من الثيب، والغريب من أهل البلد[10].

والقيافة من العلوم التي اختص بها العرب دون سواهم، قال ابن الكلبي:كانت في العرب خاصة، ولم يكن في جميع الأمم أحد ينظر إلى رجلين أحدهما قصير والآخر طويل، أو أحدهما أسود والآخر أبيض، فيقول: هذا القصير ابن هذا الطويل، وهذا الأسود ابن هذا الأبيض، إلا في العرب[11]. وكانوا يميزون بين آثار كل من الرجل والمرأة، والشيخ والشاب، والبصير والأعمى، والأحمق والكيس، وكذلك كانوا يفعلون في الحيوان، وتوسعوا في هذه المعرفة فكانوا يستدلون

بهيئته وأعضائه على نسبه، وكانوا ينظرون إلى أشخاص مجهولي النسب، فيلحقون كلا منهم بعشيرته[12].

واشتهرت من بين قبائل العرب في القيافة قبيلة مدلج، حتى كان يقال للقائف "مدلجي"[13]. ومن مدلج الصحابي الجليل محرز المدلجي رضي الله عنه، الذي سُرَّ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقيافته في زيد بن حارثة، وابنه أُسامة بن زيد، حيث دخل عليهما فوجدهما نائمين، وقد بدت أقدامهما من غطائهما، فقال: **"إن هذه الأقدام بعضها من بعض"**[14]. ومن السنة النبوية أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حكم بقول القائف، وجعل القيافة دليلاً من أدلة ثبوت النسب، وقد تتبع الخلفاء الراشدون رضوان الله عليهم هذا النهج، واعتبروا القيافة دليلا من أدلة ثبوت النسب، وأخذ بذلك كبار الأئمة كمالك وأحمد والشافعي[15].

وفي كتب التراث الإسلامي الكثير من القصص والروايات عن القيافة، وتفنن العرب فيها، حيث جاء في الحديث: أنّ حليمة السعديّة مرضعة الرسول صلّى الله عليه وسلم، قالت: **"قدم علينا قائف من بنى مدلج، فانطلق الناس بأولادهم إلى ذلك القائف، فلمّا نظر القائف إلى النبي صلّى الله عليه وسلم أخذه فقبّله، ثم قال: ما ينبغي لهذا الغلام أن يكون في بني سعد، فقال له الحارث صدقت، وهو مسترضع فينا، وهو ابني من الرضاعة، فقال القائف: أرددوه على أهله، فإنّ له شأنا عظيما، وستفترق فيه العرب، ثم تجتمع عليه"**[16]. واختلف رجلان من القافة في أمر بعير وهما بين مكة ومنى فقال أحدهما: هو جمل، وقال الآخر: هي ناقة، وقصدا يتبعان الأثر حتى دخلا شعب بني عامر فإذا بعير واقف فقال أحدهما لصاحبه: أهو ذا ؟ قال: نعم، فوجداه خنثى، فأصابا جميعا[17].

2 النظام القصوري الواحاتي في توات:

تشكل القصور المكون الأساسي لمنطقة توات، وتوات عبارة عن مجموعة من القصور المتناثرة في الصحراء، على امتداد أزيد من سبعمائة كلم، والقصر في توات يأخذ شكلاً مستطيلاً، أو دائرياً، أو مربعاً، يبنى بالطين والحجارة، وغالباً ما يتم بناؤه فوق الروابي، والأماكن المرتفعة ليكون بعيدا عن السيول والفيضانات، ولتسهيل عملية مراقبته والدفاع عنه. وعادة ما يحاط بخندق، وتكون البساتين بجانبه. ويذكر ابن خلدون أنه كان بتوات في القرن الربع عشر ميلادي مائتي قصر، ومائة في تينجورارين**[18]**. بينما يرى مولاي أحمد الطاهري الإدريسي أنه كان لليهود فقط حوالي ثلاثمائة (300) قصر(!)**[19]**. وفي إحصاء شبه رسمي يعود للقرن الثامن عشر ميلادي، بلغ عدد قصور توات حوالي مائتان وستون(260) قصراً، تحمل في معظمها أسماء زناتية**[20]**.

وتعتبر القصور الركيزة الأساسية للحضارة في توات، والتي يمكن تسميتها بحضارة القصور أو الواحات، ولم تقم في توات تجمعات سكانية كبيرة مثل باقي المناطق، بل على العكس من ذلك كان السكان غالبا ما يلجئون إلى الهجرة والرحال من التجمعات السكانية الكبيرة، ويختطون قصور جديدة، بحثاً عن الماء في المناطق المساعدة على إقامة الفقارات، والتربة الجيدة الصالحة للزراعة.

شكلت القصور في المنطقة وحدات سياسية شبه مستقلة، تدير شؤونها بنفسها، وعرفت نظام الجماعة، وهو أشبه بنظام القبيلة، ولكل قصر جماعة تسيره وتسهر على تنظيم الأمور بداخله[21]، وله حدود متعارف عليها، وقوانين خاصة به أحيانا، وغالبا ما تتشكل الجماعة من عشرة[22] رجال، من خيرة رجال القصر، يمثلون كافة القبائل داخله، يقودهم مسئول الجماعة، وتتمتع هذه الأخيرة بسلطة مادية ومعنوية كبيرة.

يقوم النشاط الاقتصادي للقصر على الزراعة، والتي تعتبر النشاط الرئيسي الذي يمارسه السكان، وأحدي عوامل الاستقرار بالمنطقة، كانت تمارس في البساتين، وهي مساحات زراعية صغيرة، تشكل مجتمعة واحة، تكون غالباً في الجهة الغربية من القصر، تعود أغلب ملكيتها لطبقتي الأشراف والأحرار، ويتم سقيها بمياه الفقارات[23]. وفي هذا النظام مارس الإنسان الكثير من الحرف والمهن اليدوية، كجزء من نشاطه اليومي في البساتين أو داخل المنازل، كما مارس التجارة البينية أو التجارة مع المناطق الأخرى.

3. العوامل المساعدة على انتشار القيافة في توات:

هناك مجموعة من العوامل ساهمت في انتشار القيافة في توات لعل من بينها:

. يعيش في القصر عدد قليل من السكان، وكانت اغلب القصور لا يتجاوز عدد سكانها بداية القرن العشرين (300 ن)، ومن الأمثلة على ذلك: قصر أولاد ونقال (118ن)، أولاد أحمد (72 ن)، ملوكة (150 ن)، بني تامر (164 ن)، بني يلو (211 ن)، المنصور (283 ن)، تمنطيط (484 ن)، عزي (115 ن)، زاوية سيدي عبد القادر (111 ن)، أغيل (64 ن)، تيوريرين (271ن)، زاوية كنته (436 ن)، وغزير (58ن)[24].

. عدم وجود شرطة ولا أعوان مكلفين بالأمن داخل القصر، مما يجعل السكان يعتمدون على أنفسهم وبطرق مختلفة لحماية أنفسهم وممتلكاتهم.

. يميل الناس في المجتمع التواتي للسكينة والعافية، والاعتداء على الممتلكات والأشخاص كان

شيئا نادر الحدوث، مما يسهل حصر الأشخاص المشتبه بهم وسرعة تحديدهم.

. يعرف السكان داخل القصر بعضهم بعضا معرفة تامة، وحتى أدق التفاصيل، وفي الغالب تجد بينهم علاقة قرابة، مما يسهل على القافي تحديد آثر الشخص من خلال معرفته بكل سكان القصر كبيرهم وصغيرهم، ومعرفة إن كان الشخص من خارج القصر.

. تضاريس المنطقة والتي لا تختلف عن باقي المناطق الصحراوية، من حيث الانبساط، والعروق الرملية، والرق[25]، مما يسهل بقاء الأثر عند السير لمدة زمنية طويلة، وخاصة إن لم يكن هناك هبوب للرياح.

. عدم ارتداء اغلب الناس للنعال والأحذية، فاغلب السكان كانوا يسيرون حفاة وهذا ما يسهل معرفة آثارهم.

وأهم ما يميز القيافين في توات حسب الشهادات التي جمعناها:

. العلم والورع والتقوى، فالكثير منهم كان له نصيب من العلوم المختلفة الدينية والدنيوية، كما أن القيافة تحتاج في بعض الأحيان لمعرفة الشخص ببعض العلوم كالحساب مثلا.

. الموهبة حيث يجمع ممن تحاورنا معهم أن الأشخاص الذين كانوا يقومون بالقيافة كانت لهم موهبة تختلف عن باقي الناس داخل القصر.

. الذكاء والحنكة لان كثير من اللصوص يعملون على ابتكار حيل لتضليل القائف لكن كانوا يتفطنون لها.

. قوة الملاحظة ودقتها وقوة الحواس أو بعضها.

. أن يكون اجتماعي عارفا بكل سكان القصر كبيرهم وصغيرهم معرفة جيدة، وبالتالي يعرفون كل آثار سكان القصر.

4- نماذج من ممارسي هذه الحرفة في توات:

انتشرت حرفة القيافة في توات وقلما تجد قصر ليس به شخص أو مجموعة من الأشخاص يمارسون هذه الحرفة، ولم تكن مقتصرة على الرجال دون النساء، بل برزت الكثير من النساء ممن مارسن هذه الحرفة، ولكن كانت ممارسة هذه الحرفة بدرجات ومستويات مختلفة حسب طبيعة كل شخص ومقدرته، وسنحاول في هذا المطلب ذكر بعض الأمثلة على سبيل المثال لا الحصر، لأنه لا يمكن حصر جميع من مارس هذه الحرفة ومن الأمثلة على ذلك:

ـ قصر أولاد علي[26]: يذكر السيد مولاي البركة بن مولاي أمحمد وهو من أعيان قصر أولاد علي أن القيافة موهبة من الله عز وجل، يخص بها عباد دون آخرين، ويذكر انه لم يكن يخلوا قصر أولاد علي من هذه الحرفة، وكانت خاصة في أبناء الولي الصالح مولاي أمحمد الشريف، والذين توارثوها فيما بينهم، ومنهم:

ـ **مولاي عبد الرحمان بن مولاي الشريف بن عابد:** والذي عرف عنه انه كان بارعا في هذه الحرفة، وكان دقيقا جدا، وعندما كان لقصر أولاد علي بابان كان كل يوم يمر عليهما ليلا ويمسحهما من أثر الأقدام، وفي الصباح وبعد آذان الفجر يتفقد المدخلان، ويقتفي الآثار ويعرف كل من دخل وخرج من القصر ليلا[27]. ومن المواقف التي سجلتها الذاكرة الجماعية للسيد مولاي عبد الرحمان انه في إحدى الأيام جاء شخص يمتطي حماراً من تمنطيط إلى قصر أولاد علي وسرق معزة من زريبة للحيوانات وهرب، وفي الصباح ذهبت صاحبة المعزة المسروقة لمولاي عبد الرحمان واشتكت له أمرها، فتتبع الأثر إلى تمنطيط وقصد شيخ الجماعة هناك وروى له ما حدث، فطلب شيخ الجماعة من السكان إخراج جميع حمير القرية، فلما رأى آثارها قال مولاي عبد الرحمان ما زالت هناك حمير أخرى، فأرسل شيخ الجماعة مساعده فأحضر باقي الحمير فوجد فيهم الحمار الذي تتبع أثره، فإذا صاحبه هو السارق[28].

ـ مولاي الحسان بن مولاي عبد الله بن عابد: وهو ممن ذاع صيتهم في القصر حيث تقول ابنته السيدة: (ز.) أن والدها كان متميزا وبارعا في القيافة، وأخذ بعض أسرارها عن والده مولاي عبد الله، والذي كان عالما بكتاب الله وعلومه وتميز أيضا في علم الميراث[29].

ـ **مولاي عبد الله بن مولاي الحسان بن عابد:** والذي إلى جانب القيافة اختص في المكاييل والأوزان والمعروف محليا (القوام) والذي يذكر أنه كان ينظر للقمح في (القمون) فيقول كم محصوله، وعند حصده ودرسه يكون ما قاله صحيحا، أو الشاة قبل ذبحا فبمجرد رؤيتها يقول كم وزنها[30].

ـ قصر تيطاف[31]: وهو أحد قصور بلدية تامست، ومن بين أقدم القصور في المنطقة، وقد برز به الكثير ممن اشتهروا بهذه الحرفة، نذكر منهم حسب الروايات التي جمعناها[32].

ـ بَّاهيًّا خليفة بن محمد بن عبد الله: والمتوفي حوالي سنة 1959م، والذي برع في هذا الفن، ورغم انه كان كفيف في آخر عمره إلا أنه كان دليلا للمسافرين والقوافل في الصحراء، وكان يعرف كل مناطق توات من تيدكلت حتى قورارة، وذلك من خلال رائحة التربة وملمسها، فيكفي أن يأخذ

حفنة من التراب ويقربها من أنفه حتى يدلك على المكان الذي أخذت منه، وتذكر الروايات أن شيخه الحاج أحمد القاضي في قصر (نومناس) أراد أن يختبره فسافر معه واخذ حفنة من تراب قصر تيطاف، وبعد أن قطعوا مسافة سأله الشيخ: (باهيا) أين نحن ؟ وأعطاه الحفنة التي كان احضرها من قصر تيطاف، فقال له: نحن نحوم فوق تيطاف ولم نخرج منها بعد، فتأكد الشيخ من فراسته وعلمه. ويقال انه كان يعرف المناطق من الهواء فيفرق بين هواء كل بلاد من بلاد توات[33].

ـ الشباني أحمد بن التاقي: وهو من مواليد 1928م، يقول أن القيافة تعلمها من والده رحمة الله عليه، وان كان يعرف كل أثر أقدام سكان قريته، وحتى قصور منطقة تامست، وعن سؤال كيف يميز بين الآثار ؟ قال: من خلال نوع الأثر، وشكله، ونوع المشي، لأن مشية المرأة تختلف عن الرجل، والولد الصغير عن الكبير، عن الفتى، عن الحامل...وغيرها، ويقول أن المعرفة الأولى تتم من آثار ثلاث أقدام، اثنان من اليمنى وواحدة من اليسرى، وترتكز الملاحظة على كيفية ضغط الرِجْل في التربة، وطريقة المشي، وحواف القدم على الأرض ووسطها، وهناك أثر للكتف في المشي، وهل الحركة من الكتف الأيسر أم الأيمن، وهز الخصر، وكذلك الفرق بين الأصابع: فهناك المفرقة، وهناك المتداخلة[34].

ويذكر انه ساهم في كشف الكثير من القضايا في قصره والقصور المجاورة، ومنها أن احد البساتين تعرض لسرقة بعض الفواكه من البطيخ وغيرها، وجاءه صاحب البستان يشتكي بعد أن وجد آثار أقدام، وبعد معاينته للبستان وتتبع الآثار داخله وخارجه، قال لصاحب البستان: ليست هناك سرقة لان هذه الآثار أصحابها دخلوا للبستان لكن لم يقتربوا من محاصيلكم، وواحد من أسرتك هو من قدم لهم هذه الفواكه، وانصرف، ومن الذين قاسموه هذه الحرفة في قصره المهدي بن محمد دادة[35].

قصر تيلولين[36]: برز في هذا القصر الكثير ممن برعوا في القيافة ومنهم:

ـ عبد الكريم بن قدور كمون من تيلولين: وهو من مواليد سنة 1931م بتيلولين المرابطين، اتخذ من غرس أشجار النخيل مصدر رزقه وقوته، فكان خبيراً ماهراً في غرسها وعلى دراية كبيرة بخباياها وعوائقها، إلى درجة أنه يستطيع تقدير وزن التمر الذي تزنه النخلة قبل أن يثمر وبدون ميزان (تقوام النخل)، وكان خبيراً أيضاً في حرفة القيافة، توفي رحمه الله يوم الأحد 29 جانفي 2012 بأدرار.

ويذكر احد أبنائه: قبل وفاته رحمه الله سألناه عن علاقته بحرفة القيافة فقال[37]: أنها موهبة من

عند الله أي لم يسبقه إليها أحد من عائلته، ومن بين العوامل التي ساعدته على التضلع بهذه الحرفة هي:

. كون منطقة تيلولين آنذاك كانت قليلة الكثافة السكانية. مما يساعده على تحديد السارق أو المعتدي بسهولة.

. كونها منطقة مشهورة بزواج الأقارب، وهو ما يساعده على تحديد العائلة التي ينتمي إليها السارق.

وعن كيفية القيام بها قال انه عندما يقوم شخص بالاعتداء ليلاً – لأن السرقة كانت عادة تتم بالليل لانعدام أضواء الشوارع آنذاك – على أي منزل أو محل ما في القرية، يقوم أولاً صاحب المنزل أو المحل بالحفاظ على أثر المعتدي حتى لا تمحيها الرياح أو غيرها، وذلك بقلب إناء على أثر القدم (الجرّة) حتى يصبح الصباح، ثم بعد ذلك يقوم الشخص المعتدى عليه بالبحث عن الوالد، ثم يرافقه إلى عين المكان. فيقوم الوالد أولاً بالتركيز والتمعن جيداً في أثر القدم حتى يتسنى له تحديد القبيلة التي ينتمي إليه السارق. ثم يقوم بالانتقال إلى تحديد السارق أو الشخص المعتدي وذلك بعد تركيزه على أثر القدم هل هي لطفل أو لشاب أو لرجل، ثم بعد ذلك يبحث في ذهنه في تلك القبيلة عن الشخص الذي يتناسب سنه مع أثر القدم. بعدها لا يبوح باسم السارق إلا بعد حصوله على وعد وعهد من الشخص المعتدى عليه بعدم إلحاق أي ضرر جسماني بالسارق، والاكتفاء بمناصفته فقط[38].

أما إذا كان السارق من خارج القرية وذلك بعد التأكد من أن أثر قدم السارق لا تنتمي لأي قبيلة من قبائل القرية، ففي هذه الحالة يقوم بالتعاون مع بعض رجال القرية من محاصرة مداخل ومخارج القصر واقتفاء أثر السارق عند الدخول إلى القصر والخروج منه، وفي بعض الأحيان يتمكن من اقتفاء هذا الأثر حتى إلى قرية السارق، ثم بعد ذلك يقوم بإبلاغ أهالي تلك القرية ليتولوا قضية السارق، وهم من يتولون قضية مناصفته ومعاقبته.

ويواصل السيد كمون شهادته حول والده ويذكر انه في أواخر حياته امتنع عن هذه الحرفة لأنها جلبت له الكثير من المشاكل، ومما كان يحز في نفسه كثيرا هو أنه في كثير من الأحيان كانت تأتيه عائلة السارق وتترجاه الكتمان والسرية قبل أن ينكشف أمر السارق[39].

5. الأهمية الاقتصادية والاجتماعية للقيافة:

كان للقيافة دور اقتصادي واجتماعي كبير في المجتمع التواتي، فالشخص القائف لم يكن مجرد شخص يمارس هذه المهنة، بل كان جزء من هذا المجتمع له إسهاماته ومكانته وله سلطة معنوية

قوية، ومن ابرز أدواره في المجتمع التواتي:

. المساعدة في الكشف عن اللصوص والمعتدين داخل المجتمع، فأول شخص يهرع إليه الناس بعد حدوث حالة اعتداء أو سرقة هو القافي، والذي لا يتوانى في اغلب الأحيان في ترك مصالحه والذهاب مع المعتدى عليهم للبحث عن المعتدي، وقد يستغرق ذلك منه وقتا طويلا.

. المساعدة في البحث عن الأشخاص التائهين في الصحراء، من خلال معرفة اتجاه سيرهم والتمييز بين آثارهم وآثار المارين الآخرين.

. معرفة وتقفي الحيوانات الضالة كالجمال والحمير والخيول وحتى الغنم، من خلال آثار أقدامها.

. ساهموا في المحافظة على الممتلكات والمنتوج الزراعي داخل البساتين والذي كان عرضة للتلف والضياع خاصة النخيل عندما يتم الاعتداء عليها في وقت الظهيرة صيفا، مما يسبب في ذبول العراجين، وهو ما جعل الكثير من الفلاحين يستعينون بالقائف لتحديد المعتدي.

. كان في الغالب القائف لا يخبر عن صاحب الأثر إلا بعد حصوله على ضمانات من المعتدى عليهم بعدم التعرض له أو الاعتداء عليه ألا بحق، وهو ما ساهم في ترابط المجتمع وتلاحمه.

. وجوده في القرية كان يعطي حصانة ومناعة، والسارق كان يدرك تماما انه سيكشف أمره لا محالة خاصة في ظل وجود قائف ماهر، وهذا ما أسهم في تراجع السرقة في المجتمع.

. لا يخلوا عمل القائف من لمسة إنسانية، وهنا كان بعض القائفين يمتنعون في بعض الحالات عن كشف السارق، عندما يتأكدون أنه ينتمي إلى عائلة فقيرة، وأن الضرورة الملحة هي التي دفعته إلى السرقة[40].

. أن كل الذين سألنهم كانوا لا يتقاضون أجرا عن هذه الحرفة، بل كانوا يمارسونها طواعية لوجه الله تعالى، رغم المشقة والوقت الضائع على حساب عملهم في بساتينهم ومصالحهم، ورغم ما كانت تجلبه لهم من مشاكل وعداوات في بعض الأحيان، والتهديد في أحيان أخرى.

الخاتمة:

وفي ختام هذا الورقة البحثية والتي تناولنا فيها القيافة بتوات من خلال عرض نماذج خرجنا بمجموعة من النتائج هي:

. القيافة من العلوم والحرف التي عرف بها التواتيون وعرفت بينهم بـ(قص الجرة).

. القيافة هي التنبؤ والإخبار عن شيء بتتبع الأثر، وقد اختص بها العرب دون سواهم من

الشعوب.

. عرفت توات عبر تاريخها قيام نظام اجتماعي واقتصادي يقوم على أساس القصر والواحة، وفي هذا النظام عرف الإنسان الاستقرار ومارس مختلف الأنشطة والحرف ومنها القيافة.

. هناك عوامل ساعدت على انتشار القيافة في توات منها نظام القصور الواحي وقلة السكان ومعرفتهم لبعضهم البعض وتضاريس المنطقة، وعدم وجود النعال والأحذية.

. تميز القافي بالعلم، والورع، والتقوى في أغلب الأحيان، كما تميز بالموهبة، والذكاء، والحنكة، وقوة الملاحظة ودقتها، وقوة الحواس أو بعضها، والمعرفة بسكان القصر كبيرهم وصغيرهم.

. برز في توات الكثير ممن امتهن هذا الحرفة، وعرفت بعض العائلات بها، منهم: السيد مولاي البركة بن مولاي أمحمد، ومولاي عبد الرحمان بن مولاي الشريف بن عابد من قصر أولاد علي. وبَّاهيًّا خليفة بن محمد بن عبد الله، والشباني أحمد بن التاقي من تيطاف. وعبد الكريم بن قدور كمون من تيلولين.

. ساهم قصاص الجرة مساهمة اقتصادية واجتماعية كبيرة في المجتمع التواتي، وبفضله كان يتم الكشف عن اللصوص والمعتدين داخل المجتمع، والمساعدة في البحث عن الأشخاص التائهين في الصحراء، والحيوانات الضالة، والمحافظة على المحاصيل الزراعية.

كما خرجنا في نهاية هذا البحث بمجموعة من التوصيات لعل من بينها:

. على الباحثين والدارسين الاهتمام بمختلف الجوانب الحضارية والعلمية غير تلك المألوفة وتدوينها.

. ضرورة الاهتمام بالرواية الشفوية كونها مصدرا مهما لكتابة التاريخ الوطني لأننا مجتمعات لا تكتب، كما أن كبار السن يعدون مكتبات متنقلة قد تضيع منا في أي لحظة.

. يمكن استغلال هذه الجوانب الحضارية في تاريخنا لإيجاد حلول للكثير من المشاكل الحالية، وذلك عبر ربط الماضي بالحاضر، والحاضر بالمستقبل.

وفي الأخير أتمنى أن أكون قد أسهمت ولو بجزء بسيط في التعريف بتراثنا الوطني، وأن تتاح لي فرص أخرى للبحث في هذا الموضوع.

ـ الحواشي والإحالات

[1]- توات حاليا هي ولاية أدرار (محافظة) في الجنوب الغربي الجزائري، باستثناء صحراء تزروفت ودائرة برج باجي مختار، إضافة لدائرة عين صالح التابعة إداريا لولاية تمنراست.

2- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد علي، بيروت، دار الساقي، ط4، 20ج، 2001م، ج12، ص350.

3- الإبانة في اللغة العربية، سَلَمة بن مُسْلِم العَوْتبي الصُحاري، تحقيق عبد الكريم خليفة وآخرون، مسقط، سلطنة عمان، وزارة التراث القومي والثقافة، ط1، 4ج، 1999، ج،5، ص4.

4- الأنساب، عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني المروزي، تحقيق عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني وآخرون، حيدر آباد، دائرة المعارف العثمانية، ط1، 1962، ج10، ص 313.

5- المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى وآخرون، القاهرة، دار الدعوة مجمع اللغة العربية، د س ن. ج2، ص766.

6 نفسه، ج1، 373.

7- تاريخ العرب القديم، توفيق برو، بيروت، دار الفكر، ط2، 2001م، ص 278.

8- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد علي، ج12، ص 350.

9- نفسه.

10- المستطرف في كل فن مستظرف، شهاب الدين محمد بن أحمد بن منصور الأبشيهي، بيروت، عالم الكتب، ط1، 1419هـ، ج1، ص 333.

11- العقد الفريد، أبو عمر، شهاب الدين أحمد بن محمد ابن عبد ربه الأندلسي، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 8ج، 1404ه، ج3، ص 278.

12- في تاريخ الأدب الجاهلي، علي الجندي، ط1، حلب، مكتبة دار التراث، 1991. ج1، ص86.

13- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد علي، ج12، ص 350.

14- قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان، أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي، تحقيق إبراهيم الإبياري، القاهرة بيروت، دار الكتاب المصري ودار الكتاب اللبناني، ط2، 1982، ج1، ص 136.

15- الفتح الرباني من فتاوى الإمام الشوكاني: محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني، تحقيق محمد صبحي، صنعاء، مكتبة الجيل الجديد، ط1، 12ج، د س ن، ج9، ص4631.

16- كنز الدرر وجامع الغرر، أبو بكر بن عبد الله بن أيبك الدواداري، تحقيق بيراند راتكه وآخرون، ط1، 9ج، حلب، عيسى البابي الحلبي، 1981، ج3، ص 21.

17- المستطرف في كل فن مستطرف، شهاب الدين محمد بن أحمد بن منصور الأبشيهي، ج1، ص334.

18-كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، عبد الرحمان ابن خلدون، تحقيق خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار، بيروت، دار الفكر للطباعة، ط1، 08 أجزاء، 2001م، ج7، ص ص76، 77.

19- نسيم النفحات في ذكر جوانب من أخبار توات، مولاي احمد الطاهري الإدريسي، مخطوط، ادرار، الجزائر، خزانة كوسام، ص 94.

20- تقييد ما اشتمل عليه إقليم توات من القصور، الرباط، المغرب، المطبعة الملكية، 1962م.

21- La Question, du Touat au Sahara Algérien Déporter:, Alger, Fontana, 1891,p23.

22- للرقم 10 قدسية خاصة في المنطقة، وهو مستوحي عندهم من العشرة المبشرين بالجنة أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم.

23 هي عبارة عن سلسلة مترابطة من الآبار، تأتي من مكان مرتفع ثم تستمر في الانحدار، إلى أن يخرج الماء على السطح، اختلف المؤرخون في سبب تسميتها بهذا الاسم، فقيل أنها مشتقة من الفقر؛ وهو الحفر، فيقال فقرَ المكان أي حفره، وقيل مأخوذة من التفجير، لأن العيون تتفجر بداخلها، فقلبت الجيم قافاً معقودةً، وتحولت إلى التفقير، ومنها جاءت الفقارة، وقيل أخذ اسمها من العمود الفقري لأن آبارها تشبه الفقار في تسلسلها. ينظر: الرحلة العلية إلى منطقة توات لذكر بعض الأعلام والآثار والمخطوطات والعادات وما يربط توات من الجهات، محمد باي بلعالم، الجزائر دار هومه، ط1، جزآن، 2005م، ج1، ص70.

24- Notice Sur le Touat, Abderrahmane Selka, - Bul - SO - G - D' Alger, Alger,1922, pp,524 - 527.

25- الأطلس العالمي، المعهد التربوي الوطني والديوان الوطني للمطبوعات المدرسية، الجزائر، بدون تاريخ، ص ص18، 19.

26- إحدى قصور تيمي سابقا، وهو حاليا حي من أحياء مدينة أدرار، يقع في الجهة الشرقية الجنوبية للمدينة.

27- لقاء شخصي مع مولاي البركة بن مولاي أحمد ولد سيد البركة، من أعيان قصر أولاد علي، قصر أولاد علي، أدرار، السبت 07 إبريل 2018، 9:00 صباحا.

28- نفسه.

29- لقاء شخصي مع ز. بنت مولاي الحسان، قائفة من قصر أولاد علي، قصر أولاد علي، أدرار، السبت 07 إبريل 2018، 18:00 مساء.

30- نفسها.

31- يبعد عن مقر ولاية أدرار حوالي 60 كلم لجهة الجنوب.

32- لقاء شخصي مع شباني أحمد بن التاقي، قائف من مواليد 1928 بتطاف، تيطاف يوم 2018/04/17، 19:00.
وأيضا: لقاء شخصي مع باناصر عبد الله: من مواليد 1942 بقصر تيطاف، تيطاف يوم 2018/04/17، 19:00.

33- لقاء شخصي مع شباني أحمد بن التاقي.

34- نفسه.

35- نفسه.

36- إحدى قصور بلدية أنجزمير، يبعد عن مقر الولاية حوالي 100 كلم لجهة الجنوب.

37- لقاء شخصي مع كمون أمحمد، أكبر أبناء القائف عبد الكريم بن قدور كمون، جرت المقابلة بتيلولين المرابطين يوم الأحد 01 أبريل 2018 الساعة الثامنة ليلا.

38- نفسه.

39- نفسه.

40- نفسه.

Al–Quiyafa and Its Role in the Oasis Village System in the Region of Tuat in the Algerian South–west

By: Dr. DJAAFRI MEBAREK

Faculty of Humanities, Social and Islamic Sciences

University Ahmed Draia – ADRAR.

Abstract:

Since its existence, the region of Tuat in the South-west of Algeria has been known by a socio-economic system based on the village and the oasis. A number of crafts and professions emerged in this system which had an important role in its survival and continuity. Al-Quiyafa, an Arabic word which means footprint recognition, emerged as a profession among the people of Tuat. The latter have been famous of this profession since ancient time, it is known by the expression "follow or identify the footprint". Many people and families adopted this profession and became famous of it. Footprint recognizers have efficiently contributed in the economic and social life in the Tuati Society. The article attempts to shed light on this profession through the collective memory and the oral tradition aiming at writing the local history of the region to preserve it from extinction.

Keywords: Footprint recognizer, Footprint recognition, Tuat, Villages, Oases, Handcraft, Socio-economic life